

وقد لبث هناك دقائق طويلة منحنيًا بلا حراك، بعد انقضاء وقت على عودة جميع «الإخوة». ثم إنه نظر، وهو يعتدل على مهل، إلى البعيد بشغف. وكانت الشمس محجوبة بعض الشيء، والهواء دافئاً ومتراحياً، وكان سعف النخيل يترجح بكآبة ترجّح أجنحة ضخمة مأسورة. وبغتة بدا له زمن حياته نفسياً. كان قراره قد قرّر: سوف يرحل قبل المساء!

كان «ماني» يردّد في نفسه قائلاً: «الرحيل عيد، وربما هو العيد الوحيد بألف شكل وألف ثوب من القماش الجعد أو من خيوط البلوط. وإذا كان الناس رهائن الأفق فهل احتفلوا يوماً بغير ذلك؟».

لم يختّر لرحيله من «بستان النخيل» التظاهر ولا الفرار، وإنما التبختر والمواجهة العريضة، وإنما الاحتفال: التعرّي قبل كل شيء، والقيام على مهل بسلخ هذا الجلد الآخر الأبيض الذي يغلفه ويحتق أنفاسه منذ عشرين عاماً، سلخه عن جلده، والتنفس في العري، والنظر بازدياد إلى ثوبه الرث المنثور على الأرض مصروعاً مفرغاً من كل سَمك الحياة.

ثم الانبعاث بالألوان: «كان «ماني» يلبس سراويل فضفاضة بساقين مصبوغتين بالأصفر المحاكي لون الصدا والأخضر المحاكي لون الكراث»، هذا ما نقله خبر مدون مُغرق في القدم. وكان على كتفيه قباء أزرق سبّوي، وكان قميصه، على الرغم من بياض لونه، مرصعاً بأزهار رسمها الرسام بنفسه في مواسم انتظاره الكثيرة وهو يحلم، كما يُطرز جهاز العروس. ومع ذلك فإن تلاميذ «ماني» سوف يُؤثرون وهم يذكرون فيما بعد يوم القطيعة ذاك أن يتحدثوا عن «مولد»، حتى إنهم لَيُنسَوْنَ «مريم» و«ماردين» وأقمطة «أوتاكيم» المشدودة. ولسوف يقولون: لا، لم يكن مولداً الانتقال من أحشاء امرأة إلى أحشاء جماعة، لم يكن سوى حمل لم ينجح، وقد توجب شيء آخر، عشرون عاماً من السفر حول الذات. وبالصبر تُدرّك زلزلة العالم.